الباب الخامس

القوة الناعمة نجاح أم فشل؟

هل نجحت القوة الناعمة مع إيران؟!

إيران بتصدير الثورة وبناء ترسانة عسكرية كبيرة والوصول إلى السلاح النووي، دخلت مرحلة فقدان التوازن عندما أصبح الحصار الاقتصادي يزيد من أعباء المواطنين، الذين صارت عملتهم مجرد قطع من الورق، ورصيد متدن، ولعل سوء إدارة الدولة، وبث الشعارات وتحويل الموارد إلى عسكرة البلد، خلقت أزمة خانقة بدأت السلطة تشعر بها حتى أن ما سرب من خلافات داخل مراكز القوة جعل الحديث عن دعم نظام الأسد بما يصل إلى عشرة مليارات دولار، موضع تساؤل ونقد،لأنه جاء مع تدني دخل الدولة وأصبح مجال استنزاف لاقتصادها، ومن العملات الصعبة، وهدر مادي غير منطقي.

الاتجاه بالاقتصاد والموارد إلى الصناعات الحربية، أضاع الاتحاد السوفيتي وقد فطنت الصين لهذا المأزق فوزعت ميزانياتها على مشاريع لا تجعل الجيش والسلاح يحتلان الأولوية، لذلك نجحت بتعدد مصادر دخلها وتوازن صرفها،إيران على العكس اعتقدت أن تحدي العالم موضوع خيار وطني يعلو على أي مصلحة أخرى، وتجاهلت أن الدول المركزية المهيمنة على الاقتصاد العالمي، إذا ما توافقت سياساتها ومصالحها،ودخلت في خصومة مع طرف ما لديها القدرة على الضغط، وربما تغيير تلك السلطات وقد جربتها في مواقع كثيرة ونجحت، ومع

إيران أصبح التأثير قاتلاً عندما انحدرت العملة وشل تصدير النفط المورد الأساسي لها،والقائمة طويلة في تبعات الهدر المالي على الجانب العسكري وحده ليتدنى دخل الفرد والأسرة، مما ينذر بانفجار داخلي قد يحوّل ربيع ثورة الخوميني إلى خريف خاصة في دولة تكرس أسطورة الإمام المخلص مع دافع فكري وتقني يبني قوته على فروض علمية مختلفة إن لم تكن تسخر من هذه الرؤى التي وصلت إلى حقائق تصدقها دولة تعيش فى عصر ما بعد عصر الحداثة.

استخدام أمريكا والغرب وحلفائهما القوة الناعمة مع إيران جاء بنتائج مهمة، أي أن صورة الحكم السابق للشاه، عندما كانت إيران الحليف المهم في وجه السوفييت، درج الشعب على استلهام كل ما هو أمريكي، ومع أن الثورة حاولت أن تلغي تلك المظاهر وآثارها بغسل الأدمغة ورفع الشأن القومي المغلف بالدين،إلا أن الثقافة القديمة لازالت بأدواتها وأشخاصها ونماذجها موجودة، وتأثيرها جعل سقف المطالب يخرج من نمط الثورة الملهمة إلى الديمقراطية والليبرالية، إلى جانب ازدراء ما هو سائد وربط مصير الإنسان بتعاليم المرشد .

فإذا كان الضغط الاقتصادي ولّد قناعة بسوء نهج الدولة، فالبديل نظام تعددي ديمقراطي يجعل للشعب حق الانتخاب الحر فى اختيار سلطته، وهذا لا توفره حكومة الملالي، وبالتالي فإن العوامل التي يراهن عليها

خصوم إيران بثورة مضادة للثورة الراهنة تدعمه مؤشرات ما يجري خلف الأسوار وأن الشعب الإيراني لم يعد يتحمل الوضع الراهن، وأن البديل ربيع مشابه للربيع العربي بأدوات تنبع من داخل إيران وشعبها.

تحويل قوة إيران إلى ضعف

يقوم هذا التصميم والمخطط على تحويل كل الشعارات والمفاخر ونقاط القوة التي تتميز بها إيران وتجويفها وإظهارها بصورة معكوسة ومضادة وقلبها وتحويلها في أذهان الرأي العام، فمثلاً يجب التركيز على ترويج إشاعات عن حالات الفساد بين أركان النظام وحالات القمع وأن هذا القمع يشبه القمع أيام الشاه وأن النظام الحاكم يبدد أموال الإيرانيين على دعم منظمات إرهابية لا تأتي إلا بالضرر على مصالح إيران ويجب إثارة تساؤل دائم عن عدم استقرار النظام في إيران وأنه غير صالح للبقاء على المدى الطويل وزرع شكوك بين النظام الحاكم في إيران وبين المنظمات المرتبطة به في المنطقة وينبغي بث معلومات تقلل من أهمية الإنجازات النووية الإيرانية.

وقد أكد مايكل آيزنشتات أن أي حملة تواصل استراتيجي كجزء من الحرب الناعمة ينبغي أن يتم وضع معايير خاصة بها بعناية، وأن تكون الشغل والعمل اليومي للإدارة الأمريكية.

القوة الناعمة في مجابهة المشروع الإيراني- الشيعي

وضع الخوميني إسقاط نظام صدام حسين هدفاً لحربه مع العراق التي استمرت ثماني سنوات اضطر فيها المرشد الأعلى لإيران إلى تجرع كأس السم ووقف الحرب بعدما أضحى نظامه هو المهدد بالانهيار نتيجة للتكلفة الكبيرة في شتى المجالات المترتبة عن طول فترة الحرب وبعد أكثر من عقد أصبح لإيران نفوذ كبير في العراق مهّده الغزو الأمريكي الذي حقق حلم الخوميني، حيث أعتلت السلطة هناك المعارضة الشيعية التي نشأ الكثير منها في طهران، وقدومها على ظهر الدبابة الأمريكية لم يجعلها تدير ظهرها لإيران وأصبحت بغداد ابتداء من هذا التاريخ ورقة في يد الإيرانيين يساومون بها على مصالحهم الإقليمية، لدرجة تجنيد مليشيات شيعية (لواء أبي الفضل العباس) للقتال مع حزب الله اللبناني إلى جانب نظام الأسد في سوريا.

هذا الدور وامتداد الأذرع الإيرانية في كل أزمات المنطقة دفع ـ كما هو متداول في الساحة السياسية الدولية وترجحه الكثير من المؤشرات- الطرف الأمريكي إلى محاولة عقد اتفاق ما مع إيران بدل حلفائها العرب وما يثير الاهتمام في كل هذا أنه عند الوقوف عند الدور العسكري الإيراني المباشر فإنه يقتصر على خبراء وبعض الكتائب من الحرس

الثوري في سوريا التي تجادل طهران بنفي وجودها، وحتى إن كان الرقم أكبر من هذا فإنه لا يمكن مقارنته بحجم المكاسب التي حققتها إيران.

من هنا يتبين عظم مكاسب القوة الناعمة التي استطاع نظام الملالي جنيها مقارنة بتواضع مكاسب القوة الصلبة طيلة العقود الماضية برغم الطاقات المادية والبشرية الكبيرة جداً التي جرى توظيفها خلال الحرب مع العراق دون أن تكلل بأي نجاح والأهم من هذا وذاك أن أدوات القوة الناعمة الإيرانية لم تقابل بأي جهود عربية حقيقية، وما دام خيار الحرب أو القوة الصلبة مكلفاً جداً في مواجهة هذا المشروع، وغير وارد في الأصل، فإن السؤال الذي يطرح الآن بإلحاح هو: كيف يمكن توظيف القوة الناعمة في مواجهة المشروع الإيراني الشيعي؟

القوة الناعمة الإيرانية في الميزان الجيوبوليتيكي:

يشير عدد من الباحثين الإيرانيين إلى أن إيران بعيدة حتى الآن عن أن تكون قوتها الناعمة ذات تأثير كبير؛ إذ يؤكد الباحث الإيراني ونائب مدير معهد طهران للأبحاث والدراسات الدولية على الاعتراف بأن الطريق لايزال طويلاً لإعادة السجادة الإيرانية إلى سابق عهدها التاريخي، وإلى جعل صنع في إيران مصدر ثقة، وإلى جعل الناس تشاهد الأفلام الإيرانية أو تشتري الفن الإيراني وإيران لا تستخدم قدرات البلاد

في القوة الناعمة بشكل صحيح، ولو تم توظيفها في السياسة الخارجية والدبلوماسية لكان تأثيرها أعمق وأكبر في النظام الإقليمي والدولي.

وفي إطار تقييم مدى نجاح الحكومة الإيرانية في تطبيق الإستراتيجية العشرينية ٢٠٢٥، التي من المفترض أن تولّد قوة ناعمة هائلة لإيران، قام الباحث الإيراني جهانجر أموزجار بدراسة لنتائج الخطة الخمسية الرابعة التي انتهت عام ٢٠١٠ لتقييم مسار الحكومة وبالتالي المسار نحو ٢٠٢٥، وكانت نتيجة التقييم كما قال: تراجع من سيء إلى أسوأ والحقيقة أن القوة الناعمة الإيرانية كانت قد وصلت ذروتها في العالم العربي بحلول عام ٢٠٠٦، وبقيت صامدة حتى عام ٢٠٠٨ حيث بدأت تتراجع بشكل سريع إلى أن تدهورت مع اندلاع الثورات العربية نهاية عام ٢٠١٠/بداية ٢٠١١، ثم تعمقت مع اندلاع الثورة السورية واستمرارها ويمكن لعدد من استطلاعات الرأي أن يكون مؤشراً يدعم هذه الحقائق لعل أهمها استطلاع زغبي الذي أجري عام ٢٠١١ .

إذا ما تم الأخذ في الاعتبار أن مصاعب جمة تعترض طريق قياس القوة الصلبة لأي بلد من المفترض أنها قابلة للقياس أصلاً نظرًا للمعطيات الكمية المرتبطة بها، فإن قياس القوة الناعمة لدولة ما يصبح مستحيلاً، ناهيك عن أن الأخيرة لا تستند إلى معيار كمي في العادة حتى يمكن قياسه وعلى الرغم من ذلك يذهب البعض إلى محاولة خلق

مؤشرات يمكن الاعتماد عليها في قياس القوة الناعمة لبلد ما، فيما يذهب البعض الآخر إلى القول بأن استطلاعات الرأي قد تكون مؤشراً جيداً فى حد ذاته يعبّر عن مدى تأثير القوة الناعمة لدولة ما من عدمها رغم افتقاره أيضاً إلى قياس كمي.[1]

ولا يعني ذلك أن إيران لا تمتلك قوة ناعمة بشكل مطلق، فقد سبق وشرحنا مصادر وأدوات قوتها الناعمة، لكن ذلك يعني بالتأكيد أن إيران فشلت في أن تضع نفسها في أي تصنيف للقوة الناعمة على الإطلاق ولعل السبب في ذلك يعود إلى أنه وعلى الرغم من تمتع إيرا بمصادر متعددة لإنتاج القوة الناعمة، وعلى الرغم من توجيه هذه القوة الناعمة من خلال أدوات، عمل النظام الإيراني على تفعليها بما يخدم الأجندة الوطنية العليا للبلاد على الصعيد المحلي والإقليمي والدولي، إلا أن مدى تأثير هذه القوة الناعمة الإيرانية في الإطار الجيوبوليتيكي يبقى محدوداً لعدة معطيات، لعل أبرزها:

من الناحية الاقتصادية : فشلت إيران في تقديم نموذج اقتصادي يكون مصدراً للقوة الناعمة فلا هي قدمت نموذجاً اقتصادياً كما فعلت الصين،

١- القوة النعامة – المؤلف – ص ١٣٩-١٤٣ .

ولا هي قدمت قصة نجاح اقتصادي كما فعلت تركيا، واعتمدت على المال السهل كدولة ريعية لاستخدامه كأداة مولدة للقوة الناعمة وفي هذا الإطار، يشير الباحث الإيراني شهرام شوبين إلى أن النموذج الاقتصادي الإيراني نموذج فاشل بامتياز حتى مقارنة مع جيران إيران الصغار في الجنوب الذين انتقل إليهم عدد لا يُستهان به من رجال الأعمال الإيرانيين فقد فشلت إيران في تنويع اقتصادها أو في الاستثمار في البنية التحتية المرتبطة بالطاقة وأدى تراكم الفساد وسوء إدارة الاقتصاد وتعويم الحكومة للعمله إلى فشل ذريع ودعم هذا التقييم نتائج التحليل الاقتصادي الذي قام به الباحث جهانجر أموزجار خلال السنوات من ٢٠٠٥ وحتى ٢٠١٠ للأداء الاقتصادي لإيران مقارنة بالخطة الإستراتيجية الخمسية الرابعة.

من الناحية السياسية : فشلت إيران أيضاً في بناء نموذج سياسي جاذب يعمل على توليد القوة الناعمة، ولم يجد أي نوع من أنواع التعاطف على عكس الحال عند حدوث الثورة الإيرانية ١٩٧٩، ولم يستطع أن يروج لإيجابياته كتركيا مثلاً، بل إن الفجوة بين النظام الثوري والمجتمع ما بعد الثورة بدأت تتسع وانعكس ذلك بشكل سلبي على صورة النظام حتى العراق الذي كان يفترض كثيرون أنه سيتأثر بالتجربة الإيرانية، لم يختر نظامًا سياسيًا مشابهًا على الإطلاق ويعتبر البعض أن الديمقراطية

الإيرانية هي ديمقراطية شكلية واقعها ثيوقراطي ومضمونها ديكتاتوري على اعتبار أن المرشد الأعلى يمتلك صلاحيات تفوق تلك التي تمتلكها أي سلطة في العالم وهو يستند إلى شرعية دينية وسياسية معًا، ويجمع إلى سلطاته صلاحيات أخرى كثيرة كما جاء في المادة ١١٠ من الدستور، ويسيطر على كل المجالس في البلاد، بعضها تابع له والبعض الآخر خاضع لنفوذه كما يعاني النظام من مشاكل هائلة في الحريات والوضوح،فأقلية مثل الأقلية السنية التي تشكّل ما بين ١٩إلى ٢٠ %على الأقل من سكان إيران لا يحق لها الوصول إلى أي منصب تنفيذي رفيع وعملياً تم حرمان ما بين ٧ إلى ١٤ مليون مواطن إيراني على الأقل بشكل أوتوماتيكي وبموجب الدستور من تولي الرئاسة أو أركان الجيش أو القضاء ناهيك عن المناصب الأخرى كما بيّنت الانتخابات الرئاسية لعام ٢٠٠٩ أن النظام يعاني مشاكل هيكلية متجذرة؛ فقد أضرت هذه الانتخابات بصورة النظام الإيراني بشكل خطير في المنطقة والعالم، وكان لها بالغ الأثر في تعزيز الصورة السلبية لدى شريحة واسعة من عامة الناس وأيضاً لدى النخبة المثقفة.

من الناحية الثقافية : لا يُعد العنصر الثقافي الفارسي سواء المتعلق باللغة أو الحضارة عامل جذب أو تأثير واسع بالمعنى العام المطلق؛ إذ أن تأثيره محدود ومرتبط بشكل مباشر بمنطقة آسيا الوسطى لكن حقيقة

أن معظم شعوب هذه المنطقة من القومية التركية، وهذا يحد بطبيعة الحال من النفوذ الإيراني ٠

من الناحية المذهبية:تبقى حقيقة أن إيران تتبع المذهب الشيعي ومزجه مع القومية الفارسية وتحديداً مبدأ ولاية الفقيه، عاملاً معرقلاً لهدفها في قيادة المنطقة أو توليد قوة ناعمة كافية تخولها القيام بتحقيق هذا الهدف دون الاعتماد على قوة صلبة بل ان هذا العنصر قد يلعب في كثير من الأحيان دوراً سلبياً في تعميق عزلة إيران الإقليمية خاصة عندما تعمد إيران إلى الاعتماد على العامل الطائفي لحشد الأقليات الشيعية في المنطقة

خيبة أمل إيرانية في الربيع العربي [1]

منذ خرج المصريون إلى الشوارع ليطالبوا بالإطاحة بحسني مبارك ودكتاتوريته التي استمرت لثلاثة عقود، وعندما كانوا يلوحون بالأعلام ويصدحون بسقوط النظام، كان هناك حاكم آخر على بعد ١٢٠٠ ميل شرقا يقوم بعقد حساباته: كيف يستغل تلك التحركات الشجاعة من أجل مصلحته الشخصية، وفي الرابع من فبراير وفي خضم المظاهرات في

١- فورين بوليسي كولين كاهل ـ ٢٥ يناير ٢٠١٢ ـ ترجمة: مركز الشعلة للأبحاث والنشر والترجمة

ميدان التحرير، خرج المرشد الأعلى للثورة الإيرانية آية الله علي خامنئي في طهران ليقدم تقييمًا للحظة الثورة التي تتكشف في مصر.

وقد تحدث في بعض أجزاء خطبته باللغة العربية ووصف الأحداث في مصر بأنها صحوة إسلامية ألهمتها الثورة الإيرانية التي اندلعت عام ١٩٧٩ووصلت تلك الخطبة إلى آلاف المصريين عن طريق رسائل الجوال القصيرة، بل إن خامنئي زعم على صفحته الإلكترونية أنه شخصيًّا كان ملهمًا للمظاهرات الموالية للديمقراطية في شوارع القاهرة، وقارنها بالصرخات التي أطلقها الشعب الإيراني ضد الطغيان والاستبداد الأمريكي والغطرسة العالمية لم يكن خامنئي وحده الذي توقع بأن الربيع العربي سوف يوفر لإيران فرصة لتوسيع نفوذها عبر الشرق الأوسط، فقبل ذلك بفترة صرح بعض المعلقين في واشنطن أنه ربما يكون صحيحاً، فقد كتب مايكل سكوت دوران في دورية فورين أفيرز - وهو مسئول سابق في إدارة الرئيس جورج بوش الابن - محذرًا من أن كتلة الممانعة التي تقودها إيران من المتوقع لها الانطلاق مثل ابن آوى على الحالة الجريحة للمنطقة.

وفي إسرائيل، أخبر رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو الكنيست أنه يعتقد أن أسوأ مخاوفه قد تتحق وأن إيران سوف تتلاعب بالأحداث في المنطقة من أجل توسيع نفوذها.

لكن تصريحات خامنئي وجدت آذانًا صماء بين مئات الآلاف الذين ضحوا بحياتهم في ميدان التحرير، فعندما سئل أحد متظاهري التحرير بشأن مزاعم خامنئي، رد عليه مازحًا: المصريون لم يلهموا من إيران، لكن الشعب المصري هو الذي ألهم العالم، وتلك كانت ملاحظة أكثر ذكاء من تعبيرات القائد الإيراني الأعلى نفسه، فكما قال مارك لينش كاتب الفورين بوليسي في توثيقه للثورة في كتابه الثورة العربية أن ثورات عام ٢٠١١ في مصر وفي المناطق الأخرى من العالم العربي أفرزتها عقود من الظلم والصرخات ضد أنظمة فاسدة وأن كل المظاهرات العربية أيدت بعضها البعض، وكانت بمثابة التحركات الفورية والانتفاضات التي اندلعت عبر العالم العربي، ولم يكن لإيران أي يد في ذلك.

فقد مثلت ردود الفعل في ميدان التحرير علامة على الكثير من الأشياء التي حدثت بعد ذلك، فقد حاولت إيران أن تستغل الأحداث، ولكن رياح التغيير السياسي لم تأت بما تشتهي السفن الإيرانية؛ فعندما سقط مبارك اختال القادة الإيرانيون في زهو، فقد رأوا أحد أهم حلفاء الولايات المتحدة يسقطون، ورأوا فرصة استغلال الفوضى لتقويض الأنظمة الأخرى الموالية للغرب في المنطقة، وأرادوا أن يعقدوا اتصالات مع إسلاميين في كل من مصر وليبيا ووسعوا من دائرة اتصالهم بحركات الثورة في اليمن، واستغلوا المظاهرات الشيعية في البحرين، وبدى أن القادة الإيرانيين واثقون من أن نظام الرئيس السوري بشار الأسد -

حليف طهران الأساسي في الشرق الأوسط - كان محصنًا من الموجة الشعبية بسبب موقفه الثوري تجاه إسرائيل والولايات المتحدة.

فبعد عام من الثورات يصعب أن نجد دلائل على أن إيران استفادت من الربيع العربي، بل إن المكانة الإقليمية لإيران قد تلقت صفعة مدوية؛ فباستثناء اليمن، فإن طهران عانت لبناء شبكات جديدة من النفوذ مع اللاعبين الإسلاميين الظاهرين حديثًا على المشهد، وفي الوقت ذاته تقوضت شرعية نظام الأسد بصورة كبيرة، وتم طرده من الجامعة العربية، ويترنح أمام المظاهرات التي اندلعت في كل أرجاء البلاد، وهذا بدوره خلق حالة من القلق لحزب الله الميليشيا اللبنانية التي تمثل أكبر حليف من غير الدول في المنطقة.

إن فكرة تدخل إيران في الشئون المحلية أدت أيضًا إلى تدمير جاذبية القوة الناعمة الإيرانية في العالم العربي، فقد أظهرت الاستطلاعات التي أجرتها مؤسسة زغبي الدولية في مصر والأردن ولبنان والمغرب والسعودية والإمارات أن سمعة إيران شهدت حالة مستمرة من السقوط منذ اندلاع الثورات العربية، فمنذ عامين فقط تمتعت إيران بغالبية قوية من الدعم بين الشعوب في كل تلك الدول، ولكن في يوليو ٢٠١١ انقلب المؤشر تمامًا وأصبحت غير مرغوبة في كل تلك الدول عدا لبنان.

وذلك لا يعد مجرد انتكاسة عابرة ومؤقتة لإيران، ولكنَّ تغيرًا هائلاً يمكن أن يقوض طموحات إيران الإقليمية بصورة كبرى، ولكي نكون منصفين فإن مسارات الثورات العربية لا تزال غير معلومة الاتجاه، فلا تزال هناك طائفية متصاعدة وتوترات وانتكاسات سياسية في بعض البلدان يمكن أن توفر فرصة لطهران لزيادة نفوذها، ولكن العديد من الديناميكيات الأساسية في المنطقة تفيد بأن معاناة طهران فيما يتعلق بسمعتها سوف تستمر.

فمع توجه الشعوب العربية إلى حكوماتها المنتخبة لتمثيل مصالحها، فإن قدرة إيران على إحداث حالة من السخط الإقليمي للتأثير على الشارع العربي سوف تستمر في الاضمحلال، بل إن القوى السياسية الناشئة التي تتنافس على النفوذ وعلى الأصوات في مشهد يسيطر عليه الجماهير بصورة كبرى، بما في ذلك الأحزاب العلمانية والمجموعات السنية العربية مثل الإخوان المسلمين، سوف تكون حريصة على التلويح بمؤهلاتها الخاصة بالقومية العربية وسوف تتلكأ في صياغة علاقة وثيقة مع طهران فبعد ساعات من سقوط مبارك على سبيل المثال، حرص متحدث باسم جماعة الإخوان المسلمين أن يؤكد على أن مصر ليست إيران، وأن مصر سوف تصنع نموذجها الخاص للديمقراطية طبقًا لثقافتها ولمرجعيتها الإسلامية.

كما أن الرد الإيراني الوحشي على المظاهرات التي اندلعت على أراضيها في عام ٢٠٠٩ تضع مزيدًا من القيود على نفوذها على الربيع العربي؛ فرفض النظام احترام الحقوق الأساسية للإنسان في الوقت الذي يزعم أنه يدعم التظاهرات الديموقراطية في العالم العربية هي دليل لا يقبل الدحض بنفاقه؛ كما أن استمرار الدعم الإيراني للنظام السوري وتكتيكاته الدموية ـ في اللحظة التي يواجه فيها الأسد الآن ضغوطاً متزايدة من الدول العربية ومن تركيا لإنهاء العنف والتنحي ـ فإن ذلك من شأنه فقط أن يؤكد تلك المعايير المزدوجة.

كما أن صراع القوة التقليدي في المنطقة أدى إلى تداعيات كبرى من المنافسين الإقليميين لإيران، فالطموحات النووية الإيرانية مع المخاوف المنتشرة من قيام إيران بتوسيع نفوذها في المنطقة والسيطرة على الخليج أدت إلى حالة محمومة من التسابق على شراء السلاح وعلى التعاون الأمني بين دول الخليج العربي، فقد تحركت المملكة العربية السعودية في البحرين من أجل مقاومة النفوذ الإيراني هناك.

كما أن آمال بقاء نظام الأسد في سوريا آخذة في التلاشي، وإلى جوارها آمال إيران في الهيمنة الإقليمية، فلعدة سنوات أدى التحالف الإيراني الوثيق مع سوريا إلى تقوية النفوذ الإيراني في العالم العربي، وجعل سوريا قاعدة لتمويل ودعم المنظمات الفلسطينية واللبنانية، ولكن

مع ثبات حركات المقاومة السورية في وجه نظام الأسد ومع زيادة عزلة النظام دوليًّا، فإن حليف إيران الأساسي في المنطقة أصبح عاجزًا عن الحركة.

فإذا ما سقط نظام الأسد فإن إيران ربما تحاول أن تعوضه بمضاعفة نفوذها في العراق، ولكن القومية العراقية متجذرة في البلاد وهناك شعور عميق بعدم الثقة في إيران التي دخلت معها في أكثر الحروب دموية في القرن العشرين، كما أن العراق تريد شراكة طويلة الأمد أيضًا مع الولايات المتحدة وعلاقات حسنة مع جيرانها العرب، وهي كلها أهداف لا تتوافق مع الهيمنة الإيرانية.

فبعد عام من اندلاع الثورة المصرية، تبدو آمال خامنئي قد تبخرت كما أن الاقتصاد الإيراني يرزح تحت العقوبات، ومع استمرار الربيع العربي في ترسيخ أقدامه وإنشاء حكومات ديمقراطية منتخبة، فإن إيران سوف تجد نفسها في مزيد من الانحدار على المدى البعيد.

فشل القوة الناعمة لإيران

لا تكمن أكبر مخاوف إيران في هجوم عسكري يستهدف برنامجها النووي الغامض، أو وقف إجباري لتخصيب اليورانيوم، ولكن في تعرضها لغزو ثقافي يتخذ صورة الحداثة الغربية وعلى الرغم من أن

نظام طهران يتعامل مع الثقافة في البلاد بجدية، فإنه يسيء فهم طبيعتها وآلياتها وديناميكياتها.

حزب إيراني قريب من المرشد يبشر الايرانيين بحل جميع مشاكلهم وعلى هذا فإن الاستياء الحكومي من الوضع الثقافي في إيران لا يتوقف على الإطلاق ولقد حققت الثورة السياسية التي قامت عام ١٩٧٩، هدفها في الإطاحة بنظام الشاه، لكن لم تتوقف عملية الثورة الثقافية وما زال مشروع إعادة أسلمة المجتمع الإيراني وثقافته مستمراً، إذ توضع سنوياً برامج وخطط جديدة لتغيير ثقافة المجتمع وأسلمتها ولكن يحاول النظام تحقيق المستحيل، ويؤمن بانتصار الأمل على التجربة.

وفي خطاب ألقاه عام ٢٠٠٣، صرح آية الله علي خامنئي قائلا: لا يحتاج أعداء إيران إلى مدفعية وبنادق وما إلى ذلك، بقدر ما يحتاجون إلى نشر القيم الثقافية التي تؤدي إلى فساد الأخلاق لقد قالوا ذلك مرات عديدة، وقرأت مؤخراً في الأخبار أن مسؤولاً رفيعاً في مركز سياسي أمريكي مهم قال: فلنرسل لهم بدلا من القنابل، تنورات قصيرة وهو على صواب، فإذا أثاروا الرغبات الجنسية في أي دولة، ونشروا الاختلاط غير المقيد بين الرجال والنساء، وقادوا الشباب إلى سلوك يميلون فيه بطبعهم إلى الغرائز، لن تكون هناك حاجة إلى المدفعية أو البنادق لمواجهة هذه الدولة.

اللافت للانتباه هو كيفية استخدام الحكومة الإيرانية للتعبيرات العسكرية ومصطلحاتها واستعاراتها في الحديث عن الثقافة ونظراً لأن خامنئي هو القائد الأعلى للقوات المسلحة، فهو أيضاً يعتبر ذاته القائد الأعلى للثقافة الإسلامية وهو الشخص الذي يحدد تعريفها ويمثل السلطة المعنية بتنفيذها.

الفتوى في التقاليد الشيعية هي رأي قانوني يطرحه فقيه إسلامي، آية الله، أو خبير ديني آخر، ولكل فتوى نفس الصلاحية الدينية بغض النظر عمن هو آية الله الذي أصدرها وعلى الرغم من أنه يجب على أتباع كل ملا الالتزام دينياً بفتاواه، إلا أن الفتاوى نفسها قابلة للتغيير، ولا يعتبر آيات الله معصومين من الخطأ وتعتبر فتاواهم بمثابة إعلانات عن فهمهم لإرادة الله، وليس إرادة الله نفسها وحتى آية الله الخميني كان قد نقح بعض فتاواه بعد إجراء مناقشات.

وما يراه خامنئي غزواً ثقافياً، يجب أن يعتبر حرباً واسعة النطاق في تاريخ البشرية من وجهة نظره، جيوش الأعداء لا تعد ولا تحصى وتشمل جميع أفراد المجتمعات الغربية، التي تلتزم بقيم الحداثة الليبرالية والمؤسسات الثقافية من الفنون إلى السياحة ووصل الغرب أيضاً إلى عولمة قيمه من أجل تسميم جميع الثقافات الأجنبية ولا يتعلق ذلك بالمسلمين فقط، بل وبالثقافات غير الإسلامية مثل اليابان.

ووفقا لخامنئي، يتعرض العالم الإسلامي على وجه التحديد لهجوم عنيف،حيث يحاول المستعمرون الثقافيون الغربيون تدمير أصالة المسلمين الثقافية، ويحرمونهم من إبداعها وهناك أيضاً عقول مستعمرة داخل المجتمع المسلم تعمل عن علم أو عن جهل كعميلة للغرب، يفسدون الساحة الثقافية ويلوثونها بميكروبات ثقافية غربية.

هؤلاء العملاء مثل المثقفين والدارسين والفنانين والكُتاب ينتجون القيم ذاتها التي يرغب المستعمرون في نشرها في جميع أنحاء العالم لذلك تعتبر الجماليات خطرة تماماً مثل السياسة التقليدية: ربما لا يكون من السهل إدراك خطورتها، لكن يجب أن نتأكد من أن الغرب لم يبتدعها عبثاً.

تؤمن الأيديولوجيا الإيرانية بوجوب إدارة الحكومة الإسلامية لجميع الشؤون الثقافية في البلاد، لذلك يعتقد حكام إيران أن الثقافة الغربية تخضع لسيطرة مشددة من القوى السياسية من إمبرياليين وصهاينة ويعتبرون أن العالم الرأسمالي ليس مصمماً من أجل العمل في إطار شبكة من اللامركزية، بل يرونه هيكلاً موجهاً يستغل كل مواطن ويسيطر على الدول غير المتقدمة بمعنى أن كل شيء أصبح سياسياً، وأنه ينبغي على كل فرد في المجتمع أن يثبت إذا كان معنا أو معهم وليس من السهل على المرء أن يثبت أنه مع الأيديولوجيا الحاكمة.

تتسم الآيديولوجيات الشمولية بأنها متقلبة ويمكن أن تتغير أمزجتها سريعاً، لأنه في النهاية، ليست المبادئ هي ما يحدد الأيديولوجيا، لكن أهواء الحاكم وقد يكون الولاء المطلق للأيديولوجيا الحاكمة أيضاً محفوفاً بالمخاطر، إذ تصبح عبادة الشخص مزايدة على الولاء للأيديولوجيا لدرجة أن يصبح الشخص هو المعيار الرئيس لمدى الولاء للأيديولوجيا.

كتب الفيلسوف والمؤرخ البولندي ليزيك كولاكوفسكي موضحاً سبب قتل جوزيف ستالين لأشخاص كانوا يخلصون في الولاء للفكر الشيوعي، أكثر مما قتل معارضي الشيوعية: إن هدف النظام الشمولي هو تدمير جميع أنواع الحياة الاجتماعية، التي لا تفرضها الدول ولا تخضع لرقابة مشددة منها، فيصبح الأفراد منعزلين عن بعضهم ، ويتحولون إلى مجرد أدوات في يد الدولة ويضيف كولاكوفيسكي قائلاً: أراد هؤلاء الذين آمنوا بالأيديولوجيا بجدية تفسيرها على طريقتهم، ودراسة ما إذا كانت هذه الخطوة السياسية أو تلك تتفق مع الماركسية ـ اللينينية على طريقة ستالين لكن حولهم ذلك إلى معارضين محتملين للحكومة، حتى وإن كانوا قد أقسموا على الولاء لستالين، إذ ربما يستدعون ستالين الأمس ضد ستالين اليوم ويستشهدون بحديث الزعيم ضد ذاته.

في السياق الإيراني، تبدو هذه الصورة مألوفة تماماً: لم يتمرد مير حسين موسوي ومهدي كروبي زعيما المعارضة الخضراء اللذان يخضعان للإقامة الجبرية منذ أكثر من ٤٥٠ يوماً وحتى الآن على الأيديولوجيا الإسلامية، ولكنهما انتقدا خامنئي وكان كلاهما مسؤولاً سابقاً ومؤمناً مخلصاً للجمهورية الإسلامية، لكنهما أدركا أن خامنئي انحرف عن المسار الأصلي للثورة.

وينطبق هذا أيضاً على المثقفين الذين اعتبروا ملتزمين بالفكر الإسلامي منذ ثلاثة عقود، ولكن تنظر الحكومة إليهم الآن بصفتهم عملاء للغرب، يسعون إلى اختراق المجتمع المسلم وإفساده من الداخل ومن بين الأمثلة التي شهدت بداياتها مع الأيديولوجيا الإسلامية، ولكن خيبت تصرفات الحكومة آمالها وحولتها إلى المعارضة، المخرج السينمائي محسن مخملباف والشاعر الراحل قيصر أمين بور والمفكر عبد الكريم سروش في الواقع المؤمنون المخلصون الذين يمتنعون عن الارتباط الأخلاقي أو الاقتصادي بالنظام، معرضون لأن يصبحوا مراجعين أو إصلاحيين.

لا يعتبر الإسلاميون، العصر الذهبي هو الفترة التي تسبق الاستعمار الغربي مباشرة أو ظهور الحداثة في أوروبا بل يعتبرون عهد النبوة، والخلافة الراشدة بالنسبة للسنة أو عهد الخليفة الرابع بالنسبة للشيعة

هي الفترة المُثلى فهم يعتبرون تاريخ الإسلام فترة من سوء فهم الإسلام، والإسلام انحرف عن مساره الرباني بعد فترة وجيزة من بدايته. ولا يرفضون مقاصد الإسلام وتاريخه الواقعي فقط، بل وأيضا علومه وتفسيره.

تتسم الأيديولوجيات الشمولية بأنها متقلبة ويمكن أن تتغير أمزجتها سريعا، لأنه في النهاية، ليست المبادئ هي ما يحدد الأيديولوجيا، ولكن أهواء الحاكم وقد يكون الولاء المطلق للأيديولوجيا الحاكمة أيضا محفوفا بالمخاطر، إذ تصبح عبادة الشخص مزايدة على الولاء للأيديولوجيا لدرجة أن يصبح الشخص هو المعيار الرئيس لمدى الولاء للأيديولوجيا.

إنهم يريدون أن يقدموا تفسيراً جديداً للإسلام ليس مفترضاً أن يتماشى تماماً مع عهد النبوة ونظراً لأنه من غير الممكن تفسير الإسلام دون الرجوع إلى مصادر تراثه، يتخذ هؤلاء الإسلاميون منهجاً انتقائياً في التعامل مع التراث الإسلامي وكتبه ومؤلفاته وعاداته.

ويختارون ما يحتاجون إليه اعتباطاً من أجل أجندتهم السياسية، ويتركون ما لا يخدم أغراضهم ـ بل ويجبرون الناس بين حين وآخر على نسيانه كلية وبالتالي يستخدمون القوة، ليس فقط في محاربة التأثير الثقافي الغربي، بل وفرض صورتهم عن الماضي على عقول المسلمين

في تلاعب بذاكرة وهوية المسلمين التاريخية لذلك يحاولون إعادة أسلمة المجتمع المسلم في عملية لا تنتهي مطلقاً.

لا يشتبك الإسلاميون مع الحاضر والمستقبل فقط، بل مع الماضي أيضاً إنهم يحاربون الوقت ذاته ويريدون أن يستبدلوا به الخلود الأسطوري ولا يجد التشاؤم التاريخي لدى الإسلاميين علاجاً، بل يقودهم إلى ممارسة مزيد من العنف حتى تصاب قدرتهم على استخدام القوة بالإنهاك؛ وهو ما يحدث في الوقت الحالي في إيران بعد التنفيذ الصارم للأيديولوجيا الإسلامية منذ ما يزيد على ثلاثة عقود.

ومن المثير للاهتمام أن نهجهم نحو الحداثة انتقائي أيضاً وهم لا ينكرون الحداثة بأكملها، بل يختارون منها التكنولوجيا والعلوم، ويرفضون ثقافات ورؤى عالمية محددة ويستطيع تزاوج التكنولوجيا الحديثة والتفسير الأيديولوجي للإسلام، أن يسفر عن أكثر القوى ظلاماً في عصرنا الحالي.

حاولت الجمهورية الإسلامية تحويل التراث الإسلامي إلى درع واق ضد الثقافة الحديثة ولكن لم تكن مؤسسة رجال الدين المصنع الأساسي لإنتاج التراث وحمايته مجهزة للقيام بالمهمة وبالفعل لم يكن رجال الدين أنفسهم حراساً ناجحين للتراث حيث تعاني عقلية رجال الدين من

الانغلاق على مدار عدة قرون كما أن خطابهم تكرار لما قاله علماء مسلمون منذ قرون عديدة.

وبعد قيام الثورة لم تكن المؤسسة الدينية متلائمة مع متطلبات وتوقعات الحكومة الإسلامية المقامة حديثاً، وقد خضعت لتحديث هيكلي وبيروقراطي، لكنها أخفقت في تحديث أسس فكرها ومعالجة تصلب التراث وخصصت الحكومة مليارات الدولارات لمؤسسة رجال الدين ومؤسسات دينية أخرى، لكي تتمكن من العمل بدلاً من المؤسسات الثقافية الحديثة.

جدير بالاهتمام أن وزارة الاستخبارات والحرس الثوري ، احتفظا بسيطرة فعلية على الإنتاج الثقافي، لكن لم تكن النتيجة مرضية للنظام تتجاهل الأيديولوجيا الإسلامية، كما هو الحال في الأنظمة الشمولية الأخرى، الطبيعة التلقائية التي تتميز بها الثقافة لم يكن من الممكن أن تنشأ أي من الثقافات الدينية الماضية نتيجة لتخطيط اجتماعي وثقافي من السلطة الحاكمة.

ولكن تتطور الثقافة طبيعياً دون وعي وبحرية وبالتالي أدى تدخل الحكومة في الثقافة من أجل قيادتها نحو توجه معين، إلى تدميرها.

من خلال فرض الرقابة على الإنتاج الثقافي، وإشهار إفلاس دور النشر والمؤسسات الثقافية الخاصة، واعتقال الكُتاب والفنانين، وتسريح الدارسين من الجامعات، وإلغاء التخصصات الإنسانية من الدراسة الأكاديمية، وتغيير الكتب الدراسية إلى كتب دينية، أخفقت الحكومة حتى الآن في إنتاج نوعها الخاص من الثقافة المقبولة.

تُعرف الأيديولوجيا الإسلامية ذاتها بأنها ضد الحداثة أكثر من كونها مع بناء مجتمع أصلي وعملي. يزيد عمر الاسلام السياسي على القرن، ولكن لا توجد رؤية واضحة لما قد يبدو عليه مجتمع إسلامي على طراز المدينة الفاضلة ونظراً لأن طبيعة الأيديولوجيا تعتمد على الإنكار بصورة أكبر، فإن قوتها تكمن في التدمير.

والمفارقة في أيديولوجيا الاسلام السياسي هي أنها تمنح دوراً محورياً للثقافة والقوة الناعمة، لكن في مواجهة القوة الناعمة الغربية تعتمد على القوة الصلبة العدوانية ودون اللجوء المحتمل إلى العنف، يميل المجتمع المحلي إلى الخضوع لتأثير الثقافة العالمية الحديثة أكثر من الانعزال عنها.

تريد الأيديولوجيا الإسلامية أيضاً أن تستبدل الشريعة بالثقافة، لذلك من وجهة نظرها، يصبح الفقهاء الدينيون حراساً على الثقافة ويتولون

مسؤولية فرض النموذج الشرعي على المجتمع وترى الأيديولوجيا التي تنظر إلى الأفراد فقط من وجهة نظر شرعية أنهم جميعا مذنبون.

الثقافة تنقذ الأمة فقد كان الإسلاميون في إيران محظوظين عندما تولوا السلطة عام ١٩٧٩، لكن لم يحالفهم الحظ في حكم مجتمع ينعم بالحداثة بالفعل لو لم تكن إيران حديثة منذ عقود قبل قيام الثورة الإسلامية، لكان فرض النموذج الإسلامي للمجتمع أسهل بكثير وعلى الرغم من الضغط اليومي الممنهج على الشعب في إيران، فإن نسبة تزيد على ٤٠ في المائة منه تشاهد القنوات الفضائية المحظورة، ويستخدم أكثر من ٢٠ مليون شخص الإنترنت ولم تعد الثقافة السرية في إيران سرية، بل مرئية ومنتشرة ويقف الجيل الجديد في وجه النموذج الثقافي الذي تفرضه الحكومة وحتى الطبقات الدينية في المجتمع تميز بين إسلام الدولة والإسلام المدني، وتفضل الأخير باستمرار ويشعر رجال الدين غير المنتمين إلى الحكومة، بأنهم أقرب إلى الشعب من هؤلاء الموجودين في السلطة فلقد فقدت الدولة الإسلامية وإسلام الدولة مصداقيتهما حتى داخل الحرس الثوري الجمهوري، وطبقة رجال الدين.

لم تأخذ الجمهورية الإسلامية في اعتبارها أن أسلمة المجتمع لها حدود لكنها أفرطت في استخدام سلطتها السياسية ويريد الشباب والنساء أن يتطلعوا إلى المستقبل، لكن الحكومة تريد أن تجعلهم سجناء الماضي.

في ظل حكم الجمهورية الإسلامية تزايدت أعداد المدارس التي تُعلِم اللغات الأجنبية في إيران بصورة هائلة، لأن الأسر حريصة على تقديم التعليم العلماني لأبنائها.

وعلى الرغم من الرقابة المفروضة، يحرص الناس كثيراً على قراءة الكتب الغربية أو مشاهدة الأفلام الغربية أو الاستماع إلى الأغاني الغربية إذا كان نظام بهلوي الملكي يحاول تحديث المجتمع من أعلى، فإن الجمهورية الإسلامية دون قصد، نجحت في تحديث المجتمع من الداخل وإذا كانت الحداثة رفاهية بالنسبة للطبقتين العليا والمتوسطة في شمال إيران في عهد الشاه، فقد أصبح في إمكان كل قرية نائية الدخول على شبكة الإنترنت ومشاهدة القنوات التلفزيونية الفضائية، والحلم بحياة أفضل والتفاعل الثقافي مع الثقافة العالمية.

أعلنت الحكومتان الإسلامية المصرية والتونسية المنتخبتان حديثا، أنهما لا ترغبان في تقليد النموذج الإيراني، ويعني ذلك أن إيران لم تعد مثالاً يحتذى في العالم الإسلامي.

تحتاج إيران إلى الاعتماد على أموالها وقوتها العسكرية، من أجل حشد المسلمين خلف قضيتها وفي حين تفشل القوة الناعمة للجمهورية الإسلامية، توجد حاجة غير مسبوقة لأن يندمج الشعب الإيراني في

الثقافة والاقتصاد العالميين، ويترك ذلك باب الأمل مفتوحاً على مصراعيه أمام حدوث تغيير سياسي في إيران.

ما بعد الفشل

كشرت إيران عن أنيابها الطائفية في المنطقة بعدما فشلت في استخدام القوة الناعمة التي اعتمدتها منذ سنوات لتحقيق ما عجزت عنه في المنطقة بالقوة الصلبة أو العسكرية للتوغل والتدخل في دول الجوار العربي عندما اصطدمت بعد ثورة ١٩٧٩ مباشرة، مع العراق ونجم عن ذلك حرب استمرت ٨ أعوام (١٩٨٠-١٩٨٨م)، مما جعلها تعيد النظر في وسائل تصدير الثورة وتنفيذ مشاريعها الاستراتيجية في منطقة الجوار العربي، مما قادها إلى الخطة ب متمثلة في استخدام أداة القوة الناعمة لتحقيق ما فشلت القوة الصلبة في تحقيقه، وهي في واقع الأمر السياسة والأداة التي تستخدمها في عراق ما بعد صدام حسين مع عدم تغييب القوة الصلبة بشكل كامل.

فمنذ وصول تيار الإصلاح إلى منصب الرئاسة ممثلاً في الرئيس الأسبق سيد محمد خاتمي، بدأت طهران تركز على الانفتاح على العالم ودول الجوار العربي تحديداً، من خلال استخدام القوة الناعمة والدبلوماسية الاقتصادية والثقافية كوسيلة لذلك الانفتاح هذا الانفتاح توج بالأحداث على الساحة اللبنانية.

صنعت إيران لها شعبية كبيرة في الشارع العربي بعد حرب يوليو ٢٠٠٦، وتحسنت صورتها كثيراً في الأوساط العربية خاصة بين بعض شرائح المجتمع التي يغلب عليها العاطفة الجيّاشة وتعطشها للانتصار على الكيان الصهيوني الذي يحتل الأرض ويقتل الشعب في فلسطين المحتلة واستمرت هذه الصورة الإيجابية لإيران حتى جاءت موجة الثورات العربية و ما يسمى بالربيع العربي.

أيدت إيران الثورات العربية في تونس ومصر واليمن وليبيا ودعت بقية الشعوب العربية خاصة في منطقة الخليج العربي، إلى الالتحاق بهذه الموجة التي صورتها طهران على أنها امتداد للثورة الإيرانية التي حدثت في عام ١٩٧٩، وأطلقت عليها مسمى الصحوة الإسلامية نعم، لقد ركبت إيران موجة الثورات العربية، عدا السورية، وتم صياغة الخطب والخطابات السياسية بطريقة ذكية لجذب مخيلة الشعوب العربية السنية نحو النموذج الفارسي الشيعي ففي لقاء جمعه بقيادات القوات الجوية الإيرانية في ٨ فبراير ٢٠١٢، تحدث مرشد الجمهورية الإيرانية علي خامنئي عما يسمى بالربيع العربي واصفاً إياه بالصحوة الإسلامية وقال إن القيم الإسلامية تتحرك نحو هوية حقيقية وراسخة وقوية يمكن تمييزها في وجه الاستبداد، مضيفاً أن الشعارات التي كان الشعب الإيراني يرفعها انتشرت اليوم في المنطقة، والدول التي كانت تتبع الجبهة المتغطرسة أصبحت الآن تقف إلى جانب الشعب الإيراني وتردد

شعاراته ومطالباته وفق ديمقراطية إسلامية وليست غربية وتأكدت طهران أن معظم الشعوب العربية أصبحت أكثر وعياً وإدراكاً للعبة الإيرانية وأن القوة الناعمة لم تعد تجدي نفعاً فتوجهت نحو التركيز على الصراع المذهبي الطائفي من خلال إعمال هذا العنصر في العراق وسوريا ولبنان وتحريك جماعات وأحزاب مسلحة كحزب الله اللبناني في لبنان وتدخله في الصراع القائم في سوريا، وكذلك الجماعات الحوثية في اليمن والميليشيات الشيعية في العراق.

إضافة إلى ذلك،ركزت إيران على إثارة الأقليات الشيعية في دول الخليج العربي خاصة في البحرين والسعودية وفي هذا الاتجاه استماتت إيران في محاولتها تصوير الثورتين السورية والعراقية كصراع طائفي تقوده القاعدة وجماعات التكفير وتستهدف الشيعة والأقليات الدينية في الشرق الأوسط وقد يصل لهب هذه النار إلى دول الاتحاد الأوروبي.

إن ثورة الشعب السوري ضد نظام بشار الأسد ثم التطورات على الساحة العراقية واقتراب النار من ثياب إيران، أسقطت ورقة التوت الإيرانية الناعمة فلقد كانت إيران ولا تزال تسعى إلى إجهاض هاتين الثورتين، فلم يقف دعمها عند المال والعتاد بل تجاوز ذلك إلى تورط عسكري على الأرض من خلال مجموعات الحرس الثوري وفيلق القدس تحديداً وكذلك ميليشيات أبو الفضل العباس، وعصائب أهل الحق، وفيلق

ذو الفقار وغيرها من المجموعات المسلحة المحسوبة على طهران وشاهد الجميع مقاطع الفيديو التي تظهر جميعها، قتال الجنود الإيرانيين إلى جانب النظام السوري بل وإدارة المعركة على الأرض وقيادتهم لفصائل من الجيش السوري أيضاً وعلى الساحة العراقية، نجد أن إيران متورطة هناك أيضاً وقد فضح ذلك خسارة طهران العديد من جنودها وطياري الحرس الثوري في العراق.

وهذه الحقائق الدامغة أثرت بشكل مباشر، في صورة إيران لدى الشعوب العربية إذ برز وجه السياسات الطائفية والتهييج المذهبي متزامناً مع محاولات الجانب الإيراني، على المستويين الرئاسي والقيادي، للعزف على وتر محاربة الإرهاب العالمي في محاولة واضحة للتقرب من الدول الغربية، والولايات المتحدة الأمريكية تحديداً، تحت مظلة محاربة الإرهاب والتطرف.

والأخطر من ذلك تجاهل القوى الغربية للإرهاب الإيراني المنظم والمرتبط بشكل مباشر بالنظام الإيراني ممثلاً في فيلق القدس التابع للحرس الثوري والميليشيات الشيعية المدعومة مالياً وتدريبياً من قبل طهران.

والأمر المثير للدهشة، أن الحكومة الأمريكية لا تزال تتقرب من النظام الإيراني وهناك تصريحات متبادلة ومتناغمة حول ضرورة تعاون

واشنطن وطهران في مجال مكافحة الإرهاب، بينما صنفت لجنة السياسة الخارجية في الكونجرس الأمريكي أخيراً إيران كأكبر دولة داعمة للإرهاب المنظم في العالم.

وعلى الجانب الغربي، يبدو أن التصعيد الطائفي في المنطقة يخدم مشاريع سياسية لقوى كبرى تستهدف المنطقة واستقرارها وبالتالي يمكن أن يدفع الصراع الطائفي إلى إنجاح هذه المشاريع والتعجيل بتحقيقها على أرض الواقع إن لم تتنبه دول المنطقة لذلك وتعمل على إفشالها قبل استفحال الأمر ولعل ظهور تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام (داعش) أحد الأدوات الحديثة للمخططات السياسية التي تطبخ ضد المنطقة.

تستطيع دول المنطقة توظيف خسارة إيران ورقة القوة الناعمة من خلال إفشال مشروعها البديل وأعني هنا المشروع الطائفي.

تفتقر إيران لعناصر بديلة في المنطقة العربية، فليس هناك ثقافة مشتركة كبيرة أو عنصر لغوي أو عرقي وتختلف عن دول الجوار العربي بتبنيها رسمياً الفكر الشيعي الإثناء عشري بينما يطغى المذهب السني على معظم دول الجوار العربي والإسلامي.

لذا فيجب على العرب المندفعين نحو ركوب موجة التهييج الطائفي إعادة النظر في مواقفهم والتفكير ملياً في مدى جدوى هذا الانقياد خلف المشروع الإيراني بوعي أو بدون وعي والتركيز على أن الخلافات مع طهران سياسية في المقام الأول وإن حاول النظام الإيراني إضفاء الصبغة المذهبية عليها لكسب مؤيدين في الداخل العربي وتجنيدهم ضد أوطانهم بدعوى انتهاك حقوق الشيعة ونحو ذلك.

بعبارة أكثر دقة، تهميش النزعة الطائفية ومحاربتها بل وتجاهلها تماماً يؤدي إلى انكفاء إيران إلى الداخل ومواجهة استحقاقات داخلية كثيرة وحاسمة حاولت طهران الهروب منها إلى الخارج لأكثر من ثلاثة عقود تحت فزاعة العدو الخارجي لكن لا بد في نهاية المطاف من هذه المواجهة المصيرية.

إن انحسار القوة الناعمة الإيرانية في المنطقة العربية والإسلامية وإفشال مشروع طهران الطائفي يقود في نهاية المطاف إلى مواجهة إيران لمشاكلها الداخلية، خاصة إذا تم سد كل الثغرات التي تتسرب من خلالها إلى الداخل العربي والعالم الإسلامي السني.

لقد جاءت التحركات المكثفة للجماعات السنية المسلحة في إقليمي كردستان وسيستان وبلوشستان واستهدافها لأعضاء حرس الحدود والحرس الثوري الإيرانيين، مربكة للنظام الإيراني خاصة بعد قيام جيش

العدل البلوشي باختطاف خمسة من أعضاء الحرس الثوري الإيراني في المناطق المتاخمة للحدود الإيرانية الباكستانية، وكذلك موجة الإعدامات وأحكام المؤبد السياسية التي نفذها النظام الإيراني ضد السجناء الأكراد والعرب.

كذلك تهمة التأثر بالحركة الوهابية أصبحت التهمة الرئيسة لأبناء السنة والجماعة في إيران، بل وتعدى الأمر إلى قيام أمين لجنة الأمن القومي والسياسة الخارجية في البرلمان الإيراني باتهام السعودية بشكل مباشر وصريح بتحريك الجماعات البلوشية المسلحة.

من جانب آخر، أدى اضطهاد الشيعة العرب في إقليم خوزستان (عربستان) وسلبهم حقوقهم الثقافية والسياسية والخدمات الحيوية في مدنهم وقراهم الغنية بالنفط إلى المزيد من الصراع بين الأحوازيين والسلطة المركزية في طهران، كما برزت موجة تسنن بين العرب في إيران ولعل من أبرز أسباب هذا التحول أن انتماءهم المذهبي لم يشفع لهم أمام النزعة العرقية القومية الفارسية.

وفي المجمل، تحاول إيران تارة إخماد أي تحرك داخلي خاصة للشعوب غير الفارسية داخل جغرافية إيران وتفضل تارة أخرى التهدئة خشية تحرك شعبي على المناطق التي تقطنها أقليات عرقية ومذهبية، مما قد يصعب على النظام السيطرة عليها بسهولة بسبب طبيعة الأرض

الوعرة ومتاخمتها للمناطق الحدودية مع باكستان وتركيا والعراق، لذا فإن قيام النظام بمطاردة هذه المجموعات داخل حدود تلك الدول خاصة باكستان والعراق قد يقود إلى توتر في العلاقات معها، لاسيما في مثل المستجدات التي تعصف بدول الجوار الإيراني خاصة العراق وأفغانستان.

تحولت الصورة الإيجابية لإيران خاتمي إلى صورة سوداوية دموية طائفية لدى معظم من انخدع بإيران في السنوات الماضية، على الرغم من وصول رئيس يوصف بالمعتدل إلا أن تعقيدات السياسة الخارجية والتطورات على الساحة الإقليمية أكبر بكثير من نجاح القوة الناعمة وسياسات الثعلب.

ففي أفغانستان، فشلت قوة إيران الناعمة في النموذج الأفغاني حين دعمت إيران الأقلية الشيعية (الهزارة) هناك والتي تشترك معها في الجانب اللغوي والديني والثقافي بالكتب والقنوات التلفزيونية والأفلام وبرامج ثقافية تبادلية ومنح دراسية لأبناء الأقلية طيلة السنوات التي أعقبت سقوط نظام طالبان عام ٢٠٠١، إلا أن ذلك كله لم يقنع المجتمع الشيعي في أفغانستان بسبب مخاوفه من عودة حكومة طالبان وبالتالي فضّل دعم القوات الأجنبية بدلاً من منح فرص أكبر لإيران وترويج ثقافة معاداة الغرب.

وعلى المستوى العربي، أسهمت حقيقة خسارة ورقة القوة الناعمة في تراجع الصورة الإيجابية لها وانتشر عداء واضح بين الشعوب العربية تجاه إيران بسبب تورطها في قتل الشعبين السوري والعراقي باصطفافها إلى جانب النظامين الحاكمين هناك وتورطها أيضاً عسكرياً على الأرض ويستمر تراجع صورة إيران على المستوى الإقليمي والدولي بعد وصول الرئيس روحاني إلى السلطة حيث لم يستطع بسياسته الانفتاحية أن يحسّن صورة بلاده في الخارج.

ويشير تقرير ميداني للمركز الأمريكي بيو للأبحاث، إلى أن صورة إيران في المنطقة اهتزت وتنامت النظرة السلبية تجاهها بشكل ساحق في عدد من البلدان لا سيما مع مشاطرة أغلبية دول منطقة الشرق الأوسط وذلك مقارنة مع الوضع الذي كان سائداً قبل ست سنوات.

وتحاول إيران تعويض ذلك بالتركيز على الجانب الدبلوماسي بدلاً من التصادم مع الغرب من خلال نجاحها في الوصول إلى اتفاق موقت مع القوى العظمى فيما يتعلق ببرنامجها النووي الذي يستهدف كسب الزمن لإنتاج السلاح النووي وبالتالي الدخول للنادي النووي الدولي إضافة إلى ذلك تلعب إيران بورقة أخرى وهي عزفها، إلى جانب الدول الغربية، على نغمة الإرهاب والجماعات الإرهابية في سوريا مما أدى إلى تقارب ملحوظ قد يزداد خلال الفترة القليلة المقبلة، خاصة إذا نجحت طهران في

الوصول إلى اتفاق دائم حول ملفها النووي بعد أن تم تمديد الاتفاق المبدئي لمدة أربعة أشهر.

المشكلة التي قد تضع إيران في موقف محرج مع الدول الأوروبية والولايات المتحدة الأمريكية تتمحور حول الخلاف الجاري بين روسيا وتلك الدول فيما يتعلق بالأزمة الأوكرانية الأمر الذي قاد روسيا إلى التلويح أكثر من مرة بورقة الاتفاق مع إيران في حالة تأزم الأمر في العلاقة بين الطرفين خاصة بعد حادثة إسقاط طائرة ركاب ماليزية في الأجواء الأوكرانية وتوجيه أصابع الاتهام نحو روسيا والقوى المتحالفة معها في الداخل الأوكراني.

الدروس المستفادة من التجربة الإيرانية

من الضروري التوقف وبتعمق أمام النظام السياسي الفريد من نوعه في العالم الذي يجمع بين المؤسسات الديمقراطية الدستورية والمؤسسات الدينية والثورية: مكانة المرشد الأعلى، حيث يكرس الدستور الإيراني ولاية الفقيه، مما يجعل المرشد العام يتمتع بوضع متميز يشرف بصفة مطلقة على السلطات التشريعية، التنفيذية والقضائية، وحسب الدستور الإيراني المعدل، فإن المرشد الأعلى يضطلع بإحدى عشرة مهمة تبدأ بتعيين السياسات العامة لنظام الجمهورية الإسلامية إلى تعيين القادة العسكريين بما فيهم القائد العام

لقوات حرس الثورة الإسلامية ومروراً بتعيين رئيس مؤسسة الإذاعة والتلفزيون، أي ترتكز بيده سلطات تعيين العسكريين، مع إخضاع وسائل الإعلام لقبضته.

وفي كثير من الأحيان، فإن رئيس الجمهورية الذي ينتخبه الشعب لا يتمتع إلا بالرتبة الثالثة في السلم الرئاسي لصانعي القرار في السياسة الخارجية الإيرانية، بعد كل من المرشد الأعلى ومجمع تشخيص مصلحة النظام، الذي يتولاه رافسنجاني وفي حالة الملف النووي الإيراني، فإن المجلس الأعلى للأمن القومي الإيراني، الذي يتشكل من الاستخبارات، الحرس الثوري، مؤسسة الإرشاد ورئيس الجمهورية، هي التي تمسك بإدارة الملف، مع التركيز على أن السمة العامة للنظام السياسي الإيراني الحالي، يسير لصالح المحافظين،بمفهوم النخبة الدينية: المرشد الأعلى على خامنئى ،والسياسية، رئيس الجمهورية محمود أحمدي نجاد، الذي دعمته الحوزة العلمية في قم، بالرغم من أنها معروفة بالحوزة الصامتة.ويضاف إلى النخبة السياسية سيطرة النواب المحافظين في مجلس الشورى، من المؤمنين بإدراك قائم في البيئة الدولية أساسه نظرية الاستكبار والمستضعفين التي وضعها الخوميني، وفي الوضع الراهن لا تزال الولايات المتحدة الأمريكية هي الشيطان الأكبر التي تتحالف مع الصهيونية لاستضعاف الشعوب الإسلامية، والبديل لهذا الوضع إقامة حكومة إسلامية عالمية عادلة، تجمع المستضعفين في

الأرض، ومؤشرات هذه النظرية، تكمن في السلوك العملي لأحمدي نجاد، الذي يرفض كل الامتيازات المتعلقة بمنصب رئيس الجمهورية، بما فيها فكرته بتحويل الطائرة الرئاسية إلى الخطوط الداخلية، على أساس أن قيمتها المالية ضخمة ولا يصح التمتع بأموال الشعب لأغراض شخصية حتى وإن كان هو ذاته رئيس الجمهورية،كما طالب بتخفيض الراتب المخصص لرئيس الجمهورية وهي نفس الصورة التي ألفها الشعب الإيراني عنه عندما كان رئيساً لبلدية طهران، حيث رفض السكن الوظيفي اللائق في أرقى أحياء طهران، وأصر على بقاءه في الحي الشعبي الفقير، وهو ما جعله محل احترام وتقدير الأغلبية في الشارع الإيراني جعلته يفوز في الاستحقاقات الرئاسية على منافسه رافسنجاني، المعروف بالإصلاحي والتوددي في سياسته الخارجية تجاه واشنطن، لأن ثقافة البازار والاستثمار تتطلب التكيف مع المؤسسات المالية والنقدية التي يديرها الغرب.

ولا تزال ذاكرة المحافظين الإيرانيين يختزلون موقف أحمدي نجاد عندما قام بانتزاع الصورة الإعلانية من شوارع طهران لأحد السلع الإيرانية التي تظهر لاعب كرة القدم البريطاني دافيد بيكام ، واعتبر ذلك من قيم العولمة التي تمس بقيم الثورة والدين ويبقى أن نشير إلى أن تحالف المحافظين في إيران يزداد قوة في التراضي والتجانس بين المرشد الأعلى وأحمدي نجاد، حيث تلقى هذا الأخير تنشئته السياسية

الأولى في بداية ثورة خوميني على يد على خامنئى عندما كان رئيساً للجمهورية، خصوصاً في مداومته على ملتقى الخميس ، وفي وقتها كان أحمدي نجاد يقوم بافتتاح الجلسة بتلاوته للقرآن الكريم قبل بداية محاضرة خامنئى، كما أصبح من المقربين إليه في حلقاته الخاصة عندما أصبح مرشداً للثورة بعد وفاة الخوميني، كما ساعده على تولي رئاسة بلدية طهران، وهو ما جعل خامنئى يستثمر في أحمدي نجاد الذي وجد فيه صوره شبابه، لأن خامنئى عاش تجربة الصراع الكبير بين الثورة والشيطان الأكبر في مرحلة الثورة الأولى، مثلما يعيشها الآن أحمدي نجاد وفضلاً عن ذلك فإن أحمدي نجاد متشبع بقيم الثورة التي اكتسبها في نضاله الطلابي وانضمامه الباكر لإلى الحرس الثوري، وهو ما حاول الإعلام الأمريكي استغلاله باعتباره كان أحد الطلبة الناشطين في احتلال السفارة الأمريكية في طهران ليلة سقوط شاه إيران.

هذا هو أهم متغير في البيئة الداخلية، الذي يمكن أن يحدد لنا صور المستقبل لإدارة الأزمة النووية بين طهران وواشنطن أما المتغيرات الخارجية، فيمكن إدراج البعض منها كأوراق بيد كل طرف، ومنها: ورقة النفط وورقة العراق لصالح إيران والورقة الإسرائيلية لصالح واشنطن، مع عدم إغفال الدور الذي يمكن أن تقوم به كل من موسكو وبكين.

يمكن القول إن الخلافات الإيرانية- العربية الحديثة، قد بدأت مع ذيول الصراع الصفوي-العثماني، ثم القاجاري-العثماني ورغم أن المعركة العسكرية حُسمت لصالح العثمانيين بعد أن خسرت إيران المعركة في جالديران عام ١٥١٤، فإن الصراع الثقافي الإيراني- التركي، والتنافس السني- الشيعي، استمرا في العراق بالذات حتى زوال الدولة العثمانية مع نهاية الحرب العالمية الأولى ورغم كل التهم الموجهة للدولة العثمانية والأتراك، فإن العثمانيين كانوا في الواقع يحاربون على الجبهة الشيعية والسنية معاً، خاصة في القرن التاسع عشر، عندما قاموا بتصفية الحركة الوهابية والدولة السعودية الأولى.

وكان العراق على الدوام بؤرة الصراع الرئيسية لأسباب مختلفة، وأدى اعتماد العثمانيين بسبب صراعهم مع إيران الشيعية، إلى زيادة الاعتماد على السُنة في العراق، وتحاشي تجنيد الشيعة، أو إشراكهم في شؤون الحكم فكانت هذه السياسة من أسباب الانقسام الطائفي، وتكريس الخلاف.

ثم بدأت المرحلة الثانية من العلاقات العربية- الإيرانية باستلام رضا شاه حكم إيران عام ١٩٢٦، والملك فيصل الأول حكم العراق عام ١٩٢١، والملك عبدالعزيز آل سعود حكم المملكة العربية السعودية عام ١٩٣٢ أما تركيا العثمانية فقد ألغيت فيها الخلافة عام ١٩٢٤ وخرجت

رسمياً من صراعات المنطقة، خاصة منطقة الخليج والجزيرة، بعد قرون طويلة من الوجود والتأثير في العراق والإحساء والحجاز.

شهدت هذه المرحلة، بين الحربين العالميتين، تجارب العرب والإيرانيين والأتراك في بناء الدولة الحديثة المستقلة وفي كل هذه الدول، خاصة العراق وإيران اشتد التعصب القومي، الذي تم على حساب الأقليات القومية والمذهبية في البلدين مهما كان حجم هذه الأقليات، كالشيعة في العراق مثلاً.

أهم المصادر والمراجع

١- الأبعاد الجيوستراتيجية للسياستين الإيرانية والتركية حيال سوريا، علي حسين باكير .

٢- صحيفة روز الإيرانية، ١-٦-٢٠٠٨.

٣- التشيع العلوي والتشيع الصفوي -علي شريعتي .

٤- إيران والفكر الإقليمي- محسن رضائي بازتاب.

٥- النفوذ الإيراني الناعم في القارة الأفريقية -عوض عثمان ٠

٦- مشروع الشرق الأوسط الكبير- وليد عبد الحي .

٧- مستقبل المكانة الإقليمية - وليد عبد الحي عام٢٠٢٠ ٠

٨- الأبعاد التاريخية للعلاقات العربية-الإيرانية- خليل علي حيدر ٠

٩- إكتشاف القوة الناعمة الإيرانية- القدرات و حدود التأثير- علي حسين باكير ٠

١٠- عدة صحف ومجلات عربية ودولية منها (جريدة الشرق الأوسط السعودية- جريدة الأخبار اللبنانية - مجلة ذي نيويوركر- جريدة وول ستريت ٠

١١- القوة الناعمة جوزيف ناي .

١٢- أمريكا انعطاف استراتيجي مؤجل لكنه قادم- منذر سليمان .

١٣- هل يكون التصوّف هو القوّة الناعمة لاختراق الإسلام لسماحة الشيخ علي خازم.

١٤- أمريكا تعد الميدان ضد إيران - محمد عبد الحليم .

١٥- الديمقراطية الأمريكية وثورة المعلومات- بروس بمبر ٠

١٦- موقع www.muslim.net و www.attajdid.info و www.wikipedia.org...

١٧- دور القوة الناعمة في الحرب النفسية على إيران - مايكل آيزنشتات ٠

١٨- عقيدة الصدمة- نعومي كلاين.

١٩- الحرب الناعمة على إيران - مايكل آيزنشتات.

٢٠- القوة الناعمة في الحرب النفسية على إيران- مايكل آيزنشتات.

٢١- الديمقراطية الأمريكية وثورة المعلومات- بروس بمبر ٠

٢٢- ثورة تويتر.. أحلام أمريكا في إيران - ماكسيمان فورت ٠

٢٣- فهم الصوفية واستشراف أثرها في السياسة الأمريكية – تقرير مركز نيكسون - تعريب د. مازن مطبقاني .

٢٤- عدة مقالات لكل من ميلشتاين - منذر سليمان - محي الدين الحليبي - سيمور هرش- ماكسيمان فورت - مايكل آيزنشتات - محمد ثروت- لجلاسماتن ودوران٠

٢٥- القوة الناعمة - جوزيف ناي٠

٢٦- كتاب إرث من الرماد تاريخ CIA

٢٧- عقيدة الصدمة - نعومي كلاين٠

٢٨- الديمقراطية الأمريكية وثورة المعلومات - بروس بمبر

٢٩- الإمبريالية،وبرجنسكي في كتابه الرؤية الإستراتيجية أمريكا وأزمة القوة العالمية.

٣٠- التواطؤ مع الغزاة - موسى الأشخم.

٣١- استراتيجية الفوضى:الإمبريالية والإسلام- محمد حسين كاتب.

٣٢- حدود الدم -رالف بيتر.

٣٣- امبريالية بروح إنسانية- سيلفا توري.

٣٤- الاغتيال الاقتصادي للأمم جون بركنز- ترجمة مصطفى الطناني.

٣٥- أنظمة السلطة- تشومسكي.

٣٦- مفارقة القوة الأمريكية - جوزيف ناي الابن - ترجمة :محمد توفيق البجيرمي.

٣٧- ثورات القوة الناعمة في العالم العربي - علي حرب.

٣٨- وثائق أساسية من تاريخ لبنان الحديث- د. عبد العزيز نوار

٣٩- العولمة الجديدة والمجال الحيوي للشرق الأوسط : مفاهيم عصر قادم - د. عبد العزيز نوار.

٤٠- الحوثية في اليمن -الأطماع المذهبية - مجموعة باحثين .

٤١- التمدد الإيراني في اليمن -نبيل البكيري.

٤٢- الزهر والحجر التمرد الشيعي- عادل الأحمدي.

٤٣- الفاعلون غير الرسميين في اليمن -عادل الشرجبي٠

٤٤- فهمي هويدي،اللامعقول في اليمن٠